القصص

البـاسـمـة

قصة مصرية

للآنسة سهير القلماوى

لسانسييه فى الآداب

سكت القوم وكأنهم ينصتون الى نغم سماوى جميل . وكأن النغم قد حملهم من الأرض الدنسة الى السماء الطاهرة ، واستمرت هى فى عزفها تهز أوتار القلوب هزا ضعيفا مطربا ، ثم أتمت عزفها والتفتت الى السامعين فاذا كل منهم مشدوه ، الهاه الطرب وأنساه النغم أن يظهر اعجابه أو سروره . ورنت ضحكتها العذبة الجميلة فتنبه السامعون ودوى المكان بالتصفيق الشديد .

كنت فى السامعين ولم أكن أعرف عنها الا أنها عذبة الابتسامة وضاحة المحيا ، يشع من نفسها سحر عجيب يملأ ما حولها حياة فرحة نشيطة . سألت عنها فقيل أنها تتكسب بعزفها هذا لتعول طفلها الصغير الوحيد . ورحت أسأل عنها هذا وذاك فعرفت أنها شخصية فذة ، شخصية نادرة عجيبة . مات أبواها وهى فى سن الطفولة ، وفقدت أقرباءها واحدا وراء الآخر حتى فقدت زوجها منذ زمن يسير . ولكن الغريب من أمرها أنها برغم هذا كله كانت مبتسمة ومتفائلة دائما . لقد صغرت الدنيا فى عينها ولم يسلمها هذا الاستصغار الى الالم أو الحزن أو اليأس . فهى لم تكن يوما ما تؤمل من الدنيا شيئا حتى يخيب أملها فيها . ثم هى لا توقن بشىء من أمر آخرتها . كل ما تعرفه أنها تعيش وأن الحياة شىء بهيج يجب أن تستمتع بها كل الاستمتاع ، فمن يدرى لعل نهايتها قريبة ! بل لعل الوانا من العذاب تنتظرها بعد حين !

كانت شديدة الشغف بالطبيعة ، تخرج اليها كلما استطاعت تستنشق نسيمها واريج ازهارها ، وكأنما تستنشق حياة جديدة فتزيد حيويتها ويزداد بشرها وسرورها .

منذ ذلك اليوم اصبحنا صديقين تزداد معرفة كل منا بالاخرى ، يوما بعد يوم ، فيزداد لذلك حبنا ويستوثق رباطنا . ولقد صحبتها فى بعض محاولاتها الاخيرة ، فقد حاولت لتزيد كسبها ان تطرق ميدان الادب ثم ميدان الرسم ثم ميدان التعليم فطرقتها جميعا واحفقت فى كل منها اخفاقا لاذنب لها فيه . ولكنها كانت ترجع من كل خيبة وكأنها أول الظافرين وآخرهم ! ثم لا يلبث فشلها ان يستحيل سريعا الى أمل جميل وعزم وطيد .

وفى ذات يوم مرض ابنها مرضا شديدا فعاونتها على علاجه والسهر على رغم أبائها ذلك على . وفى ليلة طاخية الظلام شديدة البرد اضطررت الى تركها بجانب وحيدها العليل . وفى الغد عدت اليها فوجدتها محمرة العينين تنفرج شفتاها عن ابتسامة ساخرة مرة مؤلمة . ترى ماذا حل بهذا الوجه الصبوح المستبشر الذى لم يقو الدهر على قلب ابتسامته أو تشويهها ؟ واتجه نظرى أولا الى الطفل ماذا حل به وأين هو ؟ وأخيرا علمت أن طفلها الوحيد الذى كان يربطها بالحياة فارق الحياة أمس مساء . فانهمرت دموعى على رغم ما حاولت من حبسها واحسست بفراغ حولى وكأنما نار الهبت رأسى وعينى ، فاخذت أبكى وابكى وظلت هى تكفكف عبراتى وتواسينى وكأنى أنا الثكلى المكلومة . أيمكن أن تكون عديمة الاحساس ؟ كلا لقد عرفت من حساسيتها الشىء الكثير ، ولعل نظرة واحدة الى ذلك الوجه الجميل تقنع الناظر بالآلام التى تحاول اخفاءها .

كل المصائب التى توالت عليها لم تغير نوع ابتسامتها ، ولكن موت طفلها غير ملامح وجهها كلها . يا ليتها بكت ! ياليتها استطاعت أن تبكى !

وظلت نحو شهر فى صراع بين الحزن وبين طبيعتها المرحة الضاحكة ، تحاول بكل ما أوتيت من ارادة وعزم ان تتغلب على مصابها فتبتسم كما كانت تبتسم ، ولكن ابتسامتها أصبحت مبكية مؤلمة تبعث الشفقة والالم بعد أن كانت تبعث المرح والحياة .

لقد لازمت فراشها منذ أيام وكانت متعبة مريضة خائرة